(١٥)

التقمُّص

من التجارب النفسيّة التي سأظل أتذكرها تجربة فتاة أُصيبت بنوعٍ من الشللِ الهستيريِّ؛ حيث كان والدها مصابًا بشللٍ نصفيٍّ نتيجةَ حادثٍ تعرَّض له، وبعد إصابة الأب بشهور تقمَّصت الفتاة حالة الشلل كما عايشتها وكما انطبعت في ذاكرتها الصغيرة؛ فصارت تتصنع قسريًا حالة والدها وتأتي بنفس حالات العجز وصور التعثر في المشي، وكأنها ورثت مرض الشلل عن والدها.

من الطبيعي أن يتبادر إلى الذهن عند رؤية مثل هذه الحالة أن الحالة وراثية؛ ولكن لأننا نعرف طبيعة مرض الأب اقتضى الأمر إخضاع تلك الفتاة - التي كانت تبلغ العاشرة من العمر-

إلى فحصٍ طبيٍّ كاملٍ للتأكد من طبيعة الشلل وأسبابه، ومن ثم يمكن تحديد السُبل التي يمكن أن ننتهجها في العلاج. وكانت المفاجأة؛ أن هذه الفتاة سليمة تمامًا، وأن أطراف الحركة عندها ليس فيها أي ضمور أو قصور عضلي، ولا أي شيء يبرِّر هذا الشلل، الذي أتقنت هذه الفتاة التظاهر به لدرجة تصديقه من قبل أي إنسان يراها. ولا يمكن لأي إنسان أن يتصور أو يصدِّق أن هذه المشلولة تدَّعي الشلل، وأنها سليمة الأطراف كليًا ولا يوجد أي شيء يعيبها.

في الحقيقة تعبنا من محاولة إقناع الفتاة أنها واهمة، وأن ما بها ليس سوى محاولة للتعاطف مع حالة أبيها. وباءت كل جهودنا بالفشل. ولهذا فقد اتفقت مع الطبيبِ النفسيّ المسؤول وقتها أن نلجأ إلى وسيلة نستطيع من خلالها إخراج هذه الطفلة من حالتها المرضية وإثبات أنها سليمة تمامًا.

وجاء يوم تنفيذ الخُطة، وحضرت الحالة محمولةً على أكتاف الخادمة.. فطلبت من والدتها أن تنتظر في غرفة انتظار بعيدة

نوعًا ما عن غرفة الكشف المنفصلة، حتى عن غرفة تواجدنا أنا وبقية العاملين في العيادة. وبعد الانتهاء من الكشف على الفتاة غادرنا الغرفة، وتركنا الفتاة لوحدها، وانتظرت الفتاة أكثر من ساعة ولم يذهب أحد منا إلى مكان تواجدها، وبدا القلق عليها واضحًا من خلال صوتها العالي، وهي تنادي على الجميع ابتداء من أمها إلى الممرضة، وفي الحقيقة كدنا نضعف ونهرع إلى غرفة الكشف، وبالذات بعد أن بدأ خوف الأم يزداد؛ ولكن كنت أقوم بطمأنة الأم ورجائها أن تصبر لمصلحة ابنتها، وأن هذه ليست سوى محاولة أخيرة لمساعدة الفتاة لتعي أن ما بها ليس سوى وهم، وبأنها تستطيع المشي لوحدها لو اضطرت لذلك، وأن خوفها من أن ننساها ونتركها قد يدفعها إلى المشي بدون أن تفكر بذلك كثيرًا.

وكما توقعت لم تمر دقائق على كلامي لأمها حتى رأينا الفتاة تجري باتجاهنا باكية؛ فقد ظنت أن الكل تركها، وبأننا قد نسيناها لوحدها في غرفة الكشف، فوجدت نفسها أمام خيارين؛ فإما أن

تسكت وتبقى يومًا كاملاً لوحدها، أو تحاول النهوض باحثةً عن أي أحدٍ ينقذها ممَّا هي فيه.

كانت فرحة الأم تضاهيها فرحة لرؤية ابنتها تمشي لوحدها وتتحرك بشكل طبيعي. وبدأت بالنسبة لي مرحلة جديدة في علاج الفتاة، وهي مرحلة مساعدتها أن تتأقلم مع الوضع الجديد، ومحاولة تقبل ما جرى لها على أنه خارج عن إرادتها، وأنها لم تكن تقصد الإساءة لأحدٍ أو إزعاج أهلها.

هذه القصة هي واحدة من بين القصص العلاجية التي مازلت أتذكرها بكثير من المرح والإحساس بالفرحة، لنجاح وسيلة مبتكرة لعلاج حالة لم نكن نتوقع أن تكون بهذه السهولة. فاكتشاف الحقيقة أدَّى إلى اكتشاف الفجوة (الحالة الجسدية السليمة والحالة النفسيّة التي تصيب الإنسان بعجز وهمي سواء كان شللاً أو أيَّ شيءٍ آخر، فقد كانت الفتاة عاجزة عن المشي ليس بإرادتها؛ ولكن تعاطفًا مع حالة والدها الذي تحبه كثيرًا، ويحدث هذا التعاطف السلبيّ في العديد من الحالات التي ترد

علينا في العيادة النفسيّة، ويكون المريض في أغلب الحالات غير واعٍ بما يدَّعيه من مرض. لذلك يكون العلاج صعبًا في الكثير من الحالات، وقد يستمر سنوات دون أن يعرف المعالج سببًا لتلك الأمراض.

خاتمة

وأخيرًا... هذه بعض التجارب التي رأيت أن أضعها بين دفتيِّ هذا الكتاب؛ ليكون مساهمةً متواضعةً في هذا المجال، وسردًا لوقائعَ وممارساتٍ في العلاج النفسيّ، وتجاربَ، وربما حكايات أيضًا؛ مليئة بالمعاني والدلالات والحقائق.

وعندما شرعتُ في تأليف هذا الكتاب؛ عدتُ إلى الكثير من أوراقي القديمة ويومياتي البعيدة. كما أنني أحيانًا كنت أعتصر تلافيف الذاكرة لاسترجاع واقعة، أو بعض تفاصيل واقعة، أو رسم مكان أو زمان أو حادثة. وهذه التجارب مررتُ بها أثناء ممارستي للعلاج النفسيّ في قطر، وأيضًا البعض منها في الولايات المتحدة الأمريكية، كما هو واضح من سرد تلك الحوادث. وأردت أن أشارك القراء بها.

وجاء هذا الكتاب الذي اخترتُ أن يكون بهذا الحجم الصغير؛ ليجد مكانًا عند القارئ، الذي لم تعد لديه تلك المساحة المعهودة للقراءة في هذا الزمن، الذي بدأ الكمبيوتر يسرق تلك المكانة. ولكن في اعتقادي يظل للكتاب رونقه وعبقه الذي لا يستطيع أن يتغلب عليه أي مؤثر آخر.

أتمنى أن يكون هذا الكتاب بدايةً لسلسةٍ من الكتب، تُسهم في نشر بعض أساليب مُمارسات العلاجِ النفسيّ.

د. موزة عبد الله المالكي

الكاتبة في سطور

د. موزة عبدالله المالكي

- حاصلة على أول جائزة تشجيعية لدولة قطر في التربية والعلوم الاجتماعية والنفسية، عام ٢٠٠٥م.
- رشحت لنيل جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٥م.
- دكتوراه في مجال الإرشاد النفسي
  جامعة أبرتي داندي – أسكتلندا، ٢٠٠٢م
- ماجستير علم نفس
  جامعة لافيران – الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٦م.
- تمارس العلاج والإرشاد النفسي منذ سنة ١٩٨٣. وكانت أول قطرية تؤسس مركزاً للتدريب والتأهيل النفسي في دولة قطر.
- جائزة المرأة المثالية في المجتمع القطري، عام ١٩٩٦م.
- الجائزة السنوية لمجلس مدينة جاكسون. الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٦م.
- تكريم كتاب جريدة الراية القطرية، أبريل ٢٠٠٤م.

- كانت من أوائل المرشحات لانتخابات المجلس البلدي في قطر.
- **الموقع الإلكتروني :** http://www.moza-almalki.com
- **البريد الإلكتروني :** moza@moza-almalki.com

المؤلفات :

١- الأزمات النفسية العاطفية مشاكل وحلول
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م
٢- أطفال بلا مشاكل .. زهور بلا أشواك
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م
٣- عدوانية أقل ... كيف تحول الغضب والعدوانية إلى أفعال إيجابية
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م
٤- رائحة الأحاسيس
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - الأردن، ١٩٩٨م
٥- رحلتي مع العلاج النفسي
انجاز للطباعة والنشر، دولة الكويت، ٢٠٠١م

٦- السرد القصصي والعلاج النفسي

دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٥م

٧- بعض مشكلات الأطفال السلوكية ، من واقع العيادة النفسية

دار علاء الدين، دمشق – سوريا، ٢٠٠٥م

٨- مهارات تطبيق الإرشاد النفسي

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة – قطر، ٢٠٠٥م

٩- فتيات خليجيات ومشاكلهن العاطفية

دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٦م

١٠- ثقافة الانتخاب : كتيب إرشادي. ٢٠٠٧م

١١- وللشباب مشاكله

دار قراءة للنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٧م

١٢ – عندما انفعل أكتب

مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٧م